أطلال يحيى

طريق طويل يقطعه عبادة كل يوم متجهاً إلى جامعته، يقطع فيها الكثير من السواتر الترابية والشوارع المهجورة تماماً، المكان مخيف يشعر بالخشوع. يصرّ عبادة على سلوك ذات الطريق الطويل على الرغم من وجود طريقٍ أقصر بكثير، لكن، لماذا يسير كل تلك المسافة؟! لماذا يحبّ عبادة أن يرى ما يرى من المناظر المرعبة في طريقه، على الرغم من وجود طريقٍ أقصر وأقل خوفاً.

عبادة، شابّ في منتصف العشرين، ولد وترعرع في حيٍّ شعبيّ وسط مدينة تدعى المدينة الوسطى، أمضى العقد الماضي من حياته متنقلاً بين هنا وهناك، بعد أن غادر مسقط رأسه بحثاً عن الأمان، وبعد تنقّلٍ بين اثني عشر منزلاً قررت العائلة العودة إلى منزلهم في الحيّ هرباً من الآجار والتنقل، يشبه المنزل شيخاً هرماً فقد معظم حواسه، بعد أن كان ذات يوم من سادات قومه.

يسير عبادة في تلك الشوارع، المدمرة التي لم تطأها قدم مدنيٍ منذ أن غادرها وأهله، يقلّب ناظريه، ليرى أيام الطفولة، يرى في كل خطوةٍ يخطوها شخصٌ ما، ميتٌ، أو مفقود، أو مهاجر. اعتاد على أن يسلك طريقاً جديداً في كل يوم ليستكشف أماكن جديدة، وأثناء ذهابه إلى جامعته، مرّ بشارع يعرفه، يعرفه لدرجة كافية لأن تتسارع نبضات قلبه.

هذا هو المكان الذي شاهد عبادة فيه منزلاً يعرفه جيداً، منزلاً لواحد من أحب الأشخاص إلى قلبه، منزل يحيى وزوجته، وقف مشدوهاً يبكي بحرقة، يبكي بصمت تام، ويجهش بالبكاء، صعد إلى البناء الملاصق لمنزل يحيى، إلى أعلى البناء واقترب ليرى بعينيه منزلاً مختلفاً عن كل المنازل المحيطة به، منزل لا تزال ألوانه الزاهية كما هي، منزل بإمكانك أن ترى كم المشاعر الذي كان فيه ذات يوم، ومنذ تلك الساعة قطع على نفسه وعداً بألا يعود إلى هذا المكان حتى تتحقق العدالة لهذا المنزل.

وها أنا الآن، عبادة، أخبرك لم أفر من هذا الشارع، وما الذي جعلني أقطع على نفسي ذلك الوعد.

إنها ببساطة الأطلال، أطلال منزل يحيى، الشاب الوسيم اليتيم الذي كان يحبه كل أهالي الحي، ففي كل مرةٍ أرى فيها منزله المدمر، يشعر وكأنه دُمِّر بطريقةٍ احترافية ليصبح لوحة فنيّة، لوحة فنيّة تصيبيني بالهلوسة في كل مرّة أراها، فعلى مسافةٍ شاهقة في الطابق الثامن يقع منزل يحيى الذي هدم نصفه تماماً، وهو النّصف الذي يسمح بالوصول إليه، لذلك، وبعد أكثر من عشر سنوات، لا تزال الأشياء التي كانت في ذلك النصف موجودةً في مكانها، لم تطلها يد السارقين، المرآة قرب الدرج ، والشماعة المعلقة على الجدار تحمل قميصاً ومنشفةً وحجاب، وفي غرفة النوم لا تزال هناك المرآة والطاولة أمامها، ولا يزال هنالك بعض علب المكياج وأحمر الشفاه المتناثرة في النصف المتبقي من الغرفة، حتى في المطبخ، لا أزال أرى الكثير من الأوعية والأدوات التي لا تزال في الصناديق الخشبية المعلقة على الجدار، تلك الأوعية التي كان معظمها من الهدايا التي حصل عليها يحيى في عرسه.

كل تلك الأشياء لا تزال في مكانها، تشبه الآثار، تحرق قلبي في كل مرةٍ أراها، ولأشاهد كل تلك التفاصيل كان علي أن أصعد إلى أعلى الطابق الملاصق للبناء الذي كان يقطنه يحيى ، لأشاهد ذلك الجدار في غرفة النوم الذي كنت أفكر في أن يكون اسم هذه القصة البسيطة عنه، "جدار يحيى"، الجدار الذي خطّ يحيى عليه بخط يده عشراتٍ من أبيات الشعر الغزلي العذري بلونٍ أزرق، إنه خطّ يده، أعرفه جيداً ذات الخط الذي يشبه خربشة الدجاج، الخط الذي كان في كل تلك الرسائل التي كان يرسلها معي إلى حبيبته، وكان يعتقد أنني طفلٌ صغير لا أفهم شيئاً، لكن المسكين لم يكن يعلم أنّني كنت أقرأ كل رسالةٍ يرسلها إليها، وأوصل تلك الرسائل إليها كطفلٍ بريء، وعلى الجدار، تحت كل بيت شعر مكتوبٍ بالأزرق بيت شعرٍ آخر بخطٍ وردي اللون، يبدأ بذات الحرف الذي انتهي به البيت السابق أزرق اللون، لكن هذا الخط الوردي كان مرتب وجميل، خطٌ أعرفه أكثر من خط يحيى، وإن كنت فطناً فأعتقد أنك عرفت خط من هذا، وعرفت أيضاً كيف عرفتُ أنا خط من هذا. وعلى بعد مئات الأمتار من ذلك البناء، كان هناك بناء ضخم، تحته ملجأ كبير، الملجأ الذي كنت فيه عندما قابلت يحيى وزوجته للمرة الأخيرة.

لقد لعب القدر بالنسبة لي دوراً مخيفاً في رسم معالم هذا الشارع وتحديداً ذلك المنزل وذلك الملجأ ، على الرغم من أنني لربما أول أهالي الحي مروراً بهذا الشارع منذ أن غادرناه، إلا أنني كنت أسمع كل تلك الأصوات، أصوات الناس وهي تجري نحو الملجأ، بكاء الأطفال، وأصوات أسناني التي ترتجف من شدة البرد، أسأل نفسي في كلِّ مرة، لماذا بقي هذا الجدار بالذات؟؟، ولماذا يهطل المطر في كل عام بشكل معين، ويسيل ليغسل الغبار عن الجدار؟؟، أو من الأولى أن أقول أن يغسل الغبار عن كل تلك الرسومات وكل كلمات العشق والهيام تلك، إنها شهادة التاريخ ليحفظ لي تفاصيل قصة الحب تلك، التي تشحنني بالطاقة في كل صباح، لأستيقظ بحثاً عن الإيفاء بالوعد الذي قطعته على نفسي.

إن بقايا هذا المنزل كانت حصاد عامين من العمل الشاق، وثمان سنوات من الحبّ، ثمان سنوات كان عنوانها الدائم، "جوزوهون وريحوا راسكون من هالقصة".

يحيى الشاب الشهم الذي كان عمره عندما تزوّجها أربعةً وعشرين عاماً وحبيبته "سدر"، حب حياته الذي أرّق المنطقة لأجله، ذات الاثنين وعشرين عاماً، أي أنها كانت في الرابعة عشر من عمرها عندما تعلق قلبها به، قصة حبٍ عرفتها المنطقة طيلة ثمان سنوات، فيحيى عندما علم ذات مرةٍ بوجود شخصٍ يريد الزواج منها، ذهب إلى منزلها أثناء وجود عائلة الخاطب وقال لهم: " إني أحبها، ولن تمسّ يدك يدها وأنا حي"، وبسبب هذه الحادثة حدث شجار بين يحيى وبين إخوتها، وكان الحل بتدخل والدي، الذي كان صديقاً حميماً لوالد سدر، وقطع له وعداً بحضور يحيى وعدد من وجهاء الحي، بأن يجهز يحيى نفسه خلال عامين فيمتلك منزلاً وعملاً جيداً ويتخرج من الجامعة، بالمقابل، إن حقق يحيى هذه الشروط خلال المدة الزمنية المحددة، فإن والدها سيوافق على زواجهما.

ربما تكون هذه الشروط تعجيزية لكن الحب والاستعانة بالله يشحنان المرء بطاقة رهيبة، المنطقة بأسرها كانت تحاول إنهاء قصة الحب تلك بخاتمة سعيدة، ولربما هذا ما حدث، إذ عمل جاهداً في كل ما أتيح له من عمل ليتمكّن من شراء منزلٍ وإنهاء دراسته في كلية الحقوق، وعمل أهل الحي جميعاً على دعمه بكل يملكون، وتجلى العمل المجتمعي في واحدةٍ من أبهى

صوره، بعادة مجتمعية يطلق عليها بالعامية "اللّمّة" وهي عادة يقوم فيها أبناء الحي أو العائلة بجمع المال لدعم شخصٍ ما من الحيّ ذاته لزواجٍ أو مرضٍ أو دَين، وقد تكون هذه العادة أيضاَ ضمن العائلة ذاتها أو ضمن القبيلة.

وبالفعل، اختتم أهالي الحي المدة لزمنية الموضوعة بإكمال ثمن المنزل وتقديمه كهديّة ليحيى وزوجته، وهي أيضاً عادةٌ مجتمعية، لطيفة يطلق عليها " نقوط عرس"، وتقوم على تقديم كل الحاضرين في العرس هدايا قيمة غالباً ما تكون من أثاث المنزل، أو مبالغ مالية لمساعدة الزوجان على نفقات بداية حياتهما الزوجية، وشراء حاجيات المنزل.

عمّ الفرح الحيّ يوم العرس، وحضره القاصي والداني، حتى إن الكثير من الناس حضروا الزفاف فقط ليشهدوا النّهاية السّعيدة لهذه القصة، لكن من كان يدري أن تلك السّعادة العظيمة التي غمرت الحيّ كانت على بعد عام واحد فقط من واحدة من أكثر القصص حزناً وبؤساً، فيحيى الذي كان الشل الشاغل لأهالي آنذاك، والذي دعمه كل أبناء الحي لإكمال ثمن المنزل، أخيراً قد تزوّج، وأمضى عاماً تقول عنه سدر "أنا أول عروسٍ تحصل على عام عسل".

وفي يومٍ مشؤومٍ ضبابي كثير المطر، من أواخر شهر كانون الأول عام ألفين وأحد عشر، أي بعد بداية الشيء الذي بدأ (وأطلق عليه التوصيف الذي يناسبك) بنحو تسعة أشهر، كان سكان الحي قد تجمعوا في ملجأ الحي للاحتماء من القصف، الجميع يرتجف في البرد، وصوت الانفجارات يعم المنطقة، كان بإمكانك رؤية بعض المنازل التي كانت تحترق أو تتهاوى بفعل ضربات الدبابات.

وبعد مدة من الزمن، فجأةً عم الهدوء، لم يكن هنالك رائحة في الجو سوى رائحة البارود ودخان المنازل التي تحترق الممزوجان برائحة المطر، يحيى يحتضن سدر من شدة خوفها وليخفف عنها شيئاً البرد، أخبرها بأنه سيذهب إلى المنزل ليحضر بعض الملابس السميكة لهما، وأصرت على الذهاب معه، قام بعض الشباب بمراقبة الشارع لعدة دقائق، ثم ذهبا يجريان تحت المطر يتخفّيان خلف الجدران، يمسك بيدها ويسير أمامها، يحتميان تارةً بالسواتر الترابية، وتارة بالسواتر القماشية التي تمنع القناص من الرؤية، ويقف خارج الملجأ مجموعةٌ من الشباب لإسعافهما حال تمكن القناص منهما.

وأخيراً دخلوا البناء، وبقي الشبان الذين كانوا خارج الملجأ ينتظرونهما، وبعد دقائق معدودة من ذهابهما، سمعنا صوتاً، صوت بعيد يقترب بسرعة، شهق جميع الموجودين وبدؤوا يتلفتون ويتساءلون" ألم يعودا بعد؟!!"، إنه ذات الصوت الذي نعرفه جميعاً، الصوت الذي سبب هاجساً لمعظمنا، إنه صوت الطائرة الذي يسبب لي هستيريا حتى اليوم عندما أسمعه، ثم صدر ذلك الصوت المخيف، انفجار عنيف، بدأ الجميع بالنظر إلى بعضهم البعض، الجميع يؤمِّل نفسه، لربما يكون بعيداً عنهما، لربما يكونان على وشك الوصول، وخلال ثوانٍ بدأ الغبار يتسلل إلى الملجأ بهدوء. خرج والدي بسرعة إلى باب الملجأ ونظر من النافذة في الباب، ليرى أسطح البناء قد أطبقت على بعضها البعض بشكل أفقي يعرفه معظم السوريون، كان الانفجار قد

ضرب الطوابق الأولى من البناء مما أدى لانهيار نصف البناء تقريبا بشكلٍ طولي، وكان بالإمكان رؤية منزلهما من نافذة الملجأ وقد انهار الجزء الأعظم منه.

لم ينبس أحدنا ببنت شفة، فقط عمَّ البكاء المكان، الجميع أجهش بالبكاء، دون أن يصدر أي صوت، شاهدت والدي يستند إلى الحائط ويبكي وقد ملأ القهر عينيه، سمعته يقول لعمي الذي يواسيه: "عم أبكي من العجز، بجوز لساتون عايشين، لافي دفاع مدني ولا إنقاذ ولا جرافات ولا شي، لك حتى برا الملجأ ماننا قدرانين نطلع". وفي اليوم التالي، وتحت غطاء هدنة مزعومة، خرجنا من الملجأ، يُنهكنا الجوع والعطش، واتجه الجميع نحو ذلك البناء، وبدؤوا بالحفر، وهم يصرخون بحثاً عن صوت أحد على قيد الحياة، لم يدم الأمر طويلاً حتى عثروا على يحيى الذي قد غطى سدر بغطاء سميك واحتضنها قبل أن ينهار المكان عليهما قرب الدرج في الجزء المدمر من البناء.

وعلى عكس المتوقع، عمّ الهدوء من جديد، وعمّ البكاء من جديد، الجميع يبكي بحرقة ومن جديد، دون أن يصدر أي صوت، لقد كان شعور العجز يقتلنا جميعاً، لقد رحلا، رحلا وانتهت قصتهما التي كانت حديث المنطقة، انتهت قصة يحيى وسدر، انتهت بواحدة من أفظع الطرق التي يمكن أن تنتهي بها قصة حبٍّ ما، وبقي منزلهما ليخلّد واحدة من القصص التي قد تكون فيلماً ذات يوم، لكنني لا أعتقد ذلك، فلولا أنهم هدموا قبل عامٍ من عودتنا إلى الحي الجزء المنهار من البناء ليسرقوا حديد التسليح، لما رأيت كل تلك التفاصيل في المنزل، وأعتقد أنهم سيعودون قريباً لهدم البناء كاملاً، ليسرقوا ما تبقى منه.

إن أي تشابهٍ بين أحداث هذه القصة وأية أحداث أخرى قد مرت معك أو مع أي سوري آخر ، أو تشابه أي من أماكن القصة بأية مكان تعرفه، إنما هو من الحقيقة المطلقة والواقع المرير، فهذه قصة يحيى وسدر ومنزلهما الذي كلما مرّ احد من أهالي الحي، نظر تجاهه بحرقة.

إنّ قصة يحيى ليست الوحيدة في هذه البلاد، اذهب إلى كلّ حي مدمّرٍ في سوريا وتجوّل في المكان، سترى أن كلّ منزلٍ مدمّر يصلح أن يكون قصّةً كقصتي هذه، وستجد أن كلَّ سوريٍّ لديه شارع مدمّر، أو مكان يحاول الفرار منه لألّا يُهيّج عليه ذكريات أشخاص قد ماتوا، ولربما، ستجد عشرات الجدران التي تشبه ذلك الجدار في منزل يحيى يعبر عن قصة حبٍّ أخرى، في حيٍّ ما، اختتمت بخاتمة لربما تكون أكثر مأساويةً من قصة يحيى وسدر.

إنّ هذه الحادثة، وهذا الشارع الذي كلما اقتربت منه أكثر كلما أبدعت ذاكرتي في تعذيبي أكثر فأكثر، كانت سبباً في إلزامي لنفسي بوعدٍ آمل أن أفي به ذات يوم، وهو بأن أشارك في بناء هذا المجتمع وأتعمق في قضايا العدل والسلام وجرائم الحرب والعسكرة، وكلِّ مجال يضمن تحقيق العدالة ليحيى وسدر، وكل الأبرياء الذين يموتون ظلماً وإجحافاً أثناء الحروب، فيجب أن يحلَّ السلام في هذه البلاد، ويجب أن يكوناً سلاماً عادلاً قوياً غير هش، يضمن تحقيق العدالة للجميع، عدالة كاملة غير منقوصة، لكي يستطيع أبناؤنا ذات يوم أن يرووا لأحفادنا قصصاً أجمل من هذه القصة، أو على الأقل أن تكون خاتمتها ليست كخاتمة هذه القصة.